

الأربعون العقدية

الحديث السابع والعشرون

بيان الحق نفسه في شرح

حديث "أينا لم يظلم نفسه؟"

الشيخ أمين إسماعيل



***** بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *****

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ "

(آل عمران/ ١٠٢)

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا "

(النساء/ ١)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا " (الأحزاب ٧٠/٧١)

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ،
وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

*** نص الحديث :**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :
لَمَّا نَزَلَتْ { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } ، [الأنعام: ٨٢] ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالُوا: أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ : { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (لقمان/ ١٣) "

*** تخريج الحديث :**

أخرجه البخاري (٦٩٣٧) كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ، بَابُ { لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } ، ومسلم (١٢٤) كِتَابُ الْإِيمَانِ ، " بَابُ : صَدَقَ الْإِيمَانُ وَإِخْلَاصُهُ " .

*** أهم الفوائد المتعلقة بحديث الباب :**

الفائدة الأولى : قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

لَمَّا نَزَلَتْ { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ }

أهل العلم على أسباب النزول ، فالصحابي إذا قال: هذه الآية نزلت في كذا ، فلها حكم الرفع؛ لأن قول الصحابي بأن أية كذا نزلت في كذا لا يكون إلا بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذا يقول الحافظ العراقي في ألفيته :

وَعَدُّ مَا فَسَّرَهُ الصَّحَابِيُّ ... رَفْعًا فَمَحْمُولٌ عَلَى الْأَسْبَابِ .^١

*** ومثاله :**

ما ورد من قول جابر رضي الله عنه : كانت اليهود تقول: من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله: { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ } [البقرة: ٢٢٣]، الآية.^٢ وهذا بخلاف سائر تفاسير الصحابة -رضى الله عنهم- التي لا يضاف شيء منها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو داخل في حكم موقوف .

***الفائدة الثانية : قول الصحابة رضي الله عنهم : أينا لا يظلم نفسه ؟**

فالصحابا - رضي الله عنهم - حملوا اللفظ على عمومه ، فشق عليهم إلى أن أعلمهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه ليس كما ظننتم ، بل كما قال لقمان عليه السلام. ***فإن قلت: من أين حملوه على العموم ؟**

قلت: لأن قوله: (بظلم) نكرة في سياق النفي، فاقتضت التعميم ، وفيه أن العام قد يطلق ويراد به الخاص ، فقد حمل الصحابة - رضي الله عنهم- ذلك على جميع أنواع الظلم، فبيّن الله - تعالى - أن المراد نوع منه .^٣ قال ابن القيم :

لما أشكل علي الصحابة -رضى الله عنهم - المراد بالظلم ، وظنوا أن من ظلم نفسه أي ظلم كان لا يكون آمناً ، أجابهم بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك ، وهذا - والله - الجواب الذي يشفي العليل ويروي الغليل ؛ فإن الظلم المطلق التام هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها ، والأمن والهدى المطلق هو الأمن في الدنيا والآخرة ، فالظلم المطلق التام مانع من الأمن والهدى المطلق ، ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى فتأمله ، فالمطلق للمطلق والحصة للحصة .^٤ قال الخطابي :

إنما قالت الصحابة هذا القول لأنهم اقتضوا من الظلم ظاهره الذي هو الافتيات بحقوق الناس، أو الظلم الذي ظلموا به أنفسهم، من ركوب معصية أو إتيان محرم ، كقوله عز وجل: { والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم } الآية .^٥

*** ومن الفوائد المتعلقة بحديث الباب : أقسام الظلم :**

عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال :
" الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ: فَظُّلْمٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ ، وَظُّلْمٌ يَغْفِرُهُ ، وَظُّلْمٌ لَا يَبْرُكُهُ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي

^١ ألفية العراقي المسماة بـ: " التبصرة والتذكرة في علوم الحديث " (ص/١٠٣)

^٢ متفق عليه .

^٣ عمدة القاري شرح صحيح البخاري(٢١٦/١)

^٤ الصواعق المرسله (١٠٥٨/٣)

^٥ أعلام الحديث(١٦٢/١)

لَا يَغْفِرُهُ اللهُ تَعَالَى : فَالشِّرْكَ ، قَالَ اللهُ: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ: فَظُلْمُ الْعِبَادِ أَنْفُسَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ - عز وجل - وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرُكُهُ : فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى يَفْصُلَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ " ^٦
*** ومما يستفاد من هذا الحديث أن الظلم أقسام ثلاثة :**

١- الأول :

ظلم لا يغفره الله تعالى ، وهو الشرك به ، قال الله { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (١٣) ، والشرك لا يغفره الله -تعالى- بحال من الأحوال ، قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) ((٤٨)) (النساء/٤٨)

وقد ورد اطلاق الظلم على ما كان شركاً في مواضع عدة من كتاب الله تعالى ، قال تعالى (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) ((٥٢)) (يونس/٥٢) ، وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ((٢٥٤)) (البقرة/٢٥٤)

٢- الثاني :

وهو ظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وهذا الظلم يغفره الله - تعالى- إن شاء فيدخل المرء الجنة بلا عذاب ، ومن عذب عليه فماله إلى الجنة ، كما قال تعالى { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ... } (فاطر/٣٢)

وهذه مما قيل فيها أنها أرجى إليه في القرآن ؛ فقد وردت واو الجماعة في قوله تعالى (جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ...) عائدة على الأقسام الثلاثة ، والتي منها " الظالم لنفسه بما دون الشرك " .

٣- الثالث :

وهو الظلم الذي لا يتركه الله تعالى ، وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» ^٧
*** وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:**

^٦ أخرجه أبو داود الطيالسي في " مسنده " (٢ / ٦٠) وعنه أبو نعيم في الحلية (٦ / ٣٠٩) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٢٧)

^٧ أخرجه البخاري (٢٤٤٩) وأحمد (١٠٥٧٣)

"أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ:
 "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا،
 وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضْرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،
 وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ
 فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"^٨

* وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:
 "لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ"^٩.

*** لذا يقال في تحقيق العلاقة بين وقوع الظلم وتحقيق الأمن والاهتداء أن ذلك على**

حالات :

١- الحالة الأولى :

من تخلّص من أنواع الظلم الثلاثة التي سلف ذكرها ، فحقق الإيمان التام الذي لم
 تشبهه شوائب الشرك الأكبر المنافي لجميعه، ولا الشرك الأصغر المنافي لكماله، ولا
 المعاصي المحبطة لثمراته من الطاعات ، كان له الأمن والاهتداء التام المطلق ،
 ومعنى الأمن المطلق هو الذي ليس معه عذاب .

٢- الحالة الثانية :

أن يتخلّص من أعظم الظلم ، الذي هو الشرك ، ولكنه قد وقع في الأنواع الأخرى
 فهذا له الأمن من الخلود في النار، وهو ما يسمى " مطلق الأمن " ، أى :
 أن معه أصل الأمن وأصل الاهتداء ، وإن عوقب على بقية أنواع الظلم الأخرى ،
 وهذا وفق مشيئة الله تعالى .

فالذين سلّموا من الشرك لهم الأمن، إما الأمن المطلق، وإما مطلق الأمن، والأمن
 المطلق هو الذي ليس معه عذاب، وأما مطلق الأمن فهذا الذي قد يكون معه شيء
 من العذاب على حسب الذنوب .

وهذا هو المراد بقوله تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } ؛ فقد بيّن
 الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن المراد من هذه الآية ليس السلامة من مطلق
 الظلم ، فمثل هذا لا ينفك عنه أحد ، كما فى ورد عَنْ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ
 النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَنَّهُ قَالَ :
 (... يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي

^٨ أخرجه مسلم (٢٥٨١) ، والترمذى (٢٤١٨)

أى أن حقيقة المفلس هذا الذي ذكرت ، وأما من ليس له مال ، ومن قل ماله ، فالناس يسمونه مفلساً ، وليس هذا
 حقيقة المفلس ؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته، وربما انقطع ببسار يحصل له بعد ذلك في حياته ، بخلاف
 ذلك المفلس ، فإنه يهلك الهلاك التام. تحفة الأحوذى (٦/٢٠٨)

^٩ أخرجه مسلم (٢٥٨٢) والترمذى (٢٤٢٠)

وأما القصاص من القرناء والجلعاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة
 والجلعاء هي الجماء التي لا قرن لها .

أَغْفِرَ لَكُمْ ، ...)^{١٠}

، وإنما المراد من هذه الآية هو السلامة من الظلم المطلق ، والذي بتحقيقه ينتقى عن المرء مطلق الأمن والاهتداء ، لا الأمن أو الاهتداء المطلق .

٣- الحالة الثالثة :

وهذه لمن لم يسلم من الشرك الأكبر ، وصاحبها ينتقى معه مطلق الأمن والاهتداء ، وهذا هو الظلم الأكبر المراد في قوله تعالى (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢)) (المائدة/٧٢) ، وفي قول لقمان لابنه { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (لقمان /١٣).

* وقد أجمل أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - هذه المعاني السابقة فقال :

من سلم من أجناس الظلم الثلاثة ؛ كان له الأمن التام والاهتداء التام ، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقاً ، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة ، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه.

وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله { إنما هو الشرك } أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام ؛ فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم ؛ بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم { إنما هو الشرك } إن أراد به الشرك الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة ، وهو مهتد إلى ذلك.^{١١}

قال ابن القيم :

الظلم المطلق التام هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها ، والأمن والهدى المطلق هو الأمن في الدنيا والآخرة ، فالظلم المطلق التام مانع من الأمن والهدى المطلق ، ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى فتأمل ، فالمطلق للمطلق والحصة للحصة.^{١٢}

* وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بأنواع المظالم الثلاثة ، وهم في ذلك وسط بين مدرستين قد ضللتا الفهم في هذا الباب :

١- مدرسة الخوارج والمعتزلة :

^{١٠} أخرجه مسلم (٢٥٧٧)

^{١١} مجموع الفتاوى (٨١/٧)

^{١٢} الصواعق المرسله (١٠٥٨/٣)

فَعِنْدَهُمْ أَنْ أَصْحَابَ الْكِبَائِرِ الَّذِينَ مَاتُوا مُصْرُوتًا عَلَيْهَا دُونَ تَوْبَةٍ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ ،
فَتَرَاهُمْ يَكْفُرُونَ بِظُلْمِ النَّفْسِ بِالْكَبَائِرِ ، وَيَنْفُونَ عَنِ صَاحِبِهِ مُطْلَقَ الْأَمْنِ وَالْإِهْتِدَاءِ .
٢- مدرسة المرجئة :

وَهُمْ يَرُونَ أَنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ بِمَا دُونَ الشَّرِكِ لَا يَكُونُ مُؤَثِّرًا فِي كَمَالِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ ،
بَلْ لِصَاحِبِهِ - وَإِنْ مَاتَ مُصْرًا عَلَى الْكِبَائِرِ - الْأَمْنُ وَالْإِهْتِدَاءُ الْمَطْلُوقَ .

* وَمِنَ الْفَوَائِدِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحَدِيثِ الْبَابِ :

شَدُوذُ أَهْلِ الْبِدْعِ فِي تَعْرِيفِ الظُّلْمِ :

١- قول الجهمية والأشاعرة :

قَالُوا فِي تَعْرِيفِ الظُّلْمِ : أَنَّهُ التَّصَرُّفُ فِي مَلِكِ الْغَيْرِ ، لِذَا فُلُو عَذَّبَ اللَّهُ -تَعَالَى-
الْمُطِيعِينَ وَنَعَّمَ الْعَاصِينَ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا ، لِأَنَّ الظُّلْمَ عِنْدَهُمْ إِنَّمَا هُوَ التَّصَرُّفُ فِي
مَلِكِ الْغَيْرِ ، وَاللَّهُ - تَعَالَى - مَالِكُ الْمَلِكِ ، فَأَيُّ فَعْلٍ فَعَلَهُ وَلَوْ كَانَ تَعْذِيبُ أَنْبِيَائِهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَتَكْرِيمُ أَعْدَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالشَّيَاطِينِ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا ؛ لِأَنَّهُ
لَمْ يَتَصَرَّفْ إِلَّا فِي مَلِكِهِ .

٢- قول المعتزلة :

وَهُؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إِنَّ الظُّلْمَ مُقَدَّرٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَلَكِنَّهُ عَدْلٌ مِنْزَعٌ عَنْهُ ، وَهَذَا حَقٌّ ، وَلَكِنْ
هَذَا قَدْ جَرَّهْمُ إِلَى الْقَوْلِ بِالْقَدْرِ ، فَهَمَّ قَدْرِيَّةٌ نَفَاةٌ لِخَلْقِ اللَّهِ -تَعَالَى- لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ ،
فَاللَّهُ -تَعَالَى- عِنْدَهُمْ لَمَّا عَدْلًا لَا يَظْلَمُ أَحَدًا فَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ أَلَّا يَكُونَ خَالِقًا لِأَفْعَالِ
الْعِبَادِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَالِقًا لَهَا ثُمَّ عَاقَبَهُمْ عَلَيْهَا لَكَانَ ظَالِمًا .^{١٣}
وَالْعَدْلُ عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ أَحَدُ الْأَصُولِ الْخَمْسَةِ الَّتِي بَنَوْا عَلَيْهِمْ مَذْهَبَهُمْ ، وَتَعْرِيفِهِ عِنْدَهُمْ
كَمَا سَبَقَ ذَكَرَهُ هُوَ الْقَوْلُ بِالْقَدْرِ .

٣- قول أهل السنة :

قَالُوا: الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَهَذَا مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ ، فَالظُّلْمُ الَّذِي
حَرَمَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - عَلَى نَفْسِهِ هُوَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَا يَحْمِلُ الْمَرْءُ سَيِّئَاتِ لَمْ يَفْعَلْهَا ،
وَلَا يَعْذِبُ الْمَرْءَ إِلَّا بِمَا كَسَبَتْ يَدَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)) (غافر/١٧) ، وَقَالَ سَبَّحَانَهُ
(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا
يُظَلِّمُونَ (١٦٠)) (الأنعام/١٦٠)

وكما ورد في حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله - صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

^{١٣} وقد نص القاضي عبد الجبار المعتزلي على مستند المعتزلة في نفيهم لخلق أفعال العباد، فذكر وجوهاً تزيد
عن الخمسين، ومن أراد الوقوف عليها فليراجع كتابه "المعنى في أبواب التوحيد والعدل" (٨/١٨٠-٢٢٠)،
فكان مما ذكر: "وكان مما ذكر: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم، وهو
خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه فيهم؟! وانظر شرح الطحاوية(ص/٩٧) والمعتزلة
أصولهم الخمسة(ص/١٧٩)

" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ :
 " أَظَلَمْتُكَ كَتَبْتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ،... " ^{١٤}

قال أبو العباس ابن تيمية :

فقوله تعالى: { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) } قال أهل التفسير من السلف: لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره ، ولا يهضم فينقص من حسناته . ^{١٥}
 *لذا فالقول ما قاله أهل السنة :

أن معنى الظلم المنفي عن الله - سبحانه وتعالى- هو وضع الشيء في غير موضعه ، بأن يزيد في سيئاته أو أن يحمل عليه أوزار غيره ، أو أن ينقصه من حسناته شيئاً . فالظلم المنفي عن الله - تعالى - ما هو ممكن ، وليس ممتنعاً لذاته ؛ لكن الله - تعالى - نفاه عن نفسه ونزّه نفسه عنه وحرّمه على نفسه لأنه لا يليق به عز وجل ؛ فإن الله - تعالى - لا يظلم لكمال عدله .

* الرد على الأشاعرة والجهمية :

(١) هذا التفسير تفسير باطل وهو مبني على نفي الحكمة، ومعلوم أن كون الله - عز وجل- يعذب الناس بلا ذنب هذا عبث ولا حكمة فيه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى: {أم نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار} وقال: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} .
 * لذا فمن الخطأ البين الذي راجع فيه أهل العلم صاحب العقيدة السفارينية في قوله:
 . وَجَازَ لِلْمَوْلَى يَعُذُّ الْوَرَى ... مِنْ غَيْرِ مَا تُنْبِ وَلَا جَرَمَ جَرَى .

فَكُلُّ مَا مِنْهُ تَعَالَى يَجْمَلُ ... لِأَنَّهُ عَنِ فَعْلِهِ لَا يَسْأَلُ .

فهذا القول الذي ذكره المؤلف ظن أنه مذهب أهل السنة ، وليس هذا هو مذهب أهل السنة ، بل هو مذهب الأشاعرة ومن وافقهم من متأخري بعض أهل السنة من المالكية والشافعية والحنابلة .

قال ابن العثيمين :

ولكن هذا القول باطل ؛ لقوله الله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (هود: ١١٧) ، والتعليل لذلك بقوله : " فكل ما منه تعالى يجمل .. " .
 تعليل باطل ؛ فتعذيب المطيع القائم بأمر الله - تعالى - ليلاً ونهاراً حتى مات، لا أحد يشك في أنه ظلم وأنه غير جميل .

^{١٤} أخرجه أحمد (٦٩٩٤) والترمذي (٢٦٣٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

^{١٥} مجموع الفتاوى (١٤٤/١٨)

أما التعليل الثاني في قوله: (لأنه عن فعله لا يسأل) فهذا صحيح، فالله - تعالى - لا يسأل عما يفعل، فلا يسأل لماذا هدي هذا الرجل حتى استقام ، ولماذا أضل الآخر حتى انحرف، فلا يسأل عن هذا ؛ لأن الله له الحكمة فيما قَدَّر ، لكن بعد أن يوجد السبب المقتضي للثواب أو العقاب، فلو أن الله -تعالى - عاقبه لكان هناك سؤال عن سبب معاقبة الله لهذا الرجل، ولهذا أيضاً يسقط هذا التعليل .^{١٦}

*** فإن قيل:**

فإن قال قائل: أليس الخلق كله ملكاً لله -تعالى - فله أن يفعل في ملكه ما شاء؟

فالجواب: بلى، ولكن نقول: هو نفسه - عز وجل- أخبر بأنه لا يمكن أن يظلم أحداً، ولا يمكن أن يعذب طائعاً، فيكون هذا الشيء - أي تعذيب المطيع - ممتنعاً بمقتضى خبر الله عز وجل، وبمقتضى أسمائه وصفاته، وأنه عز وجل احكم الحاكمين واعدل العادلين .^{١٧}

وعليه فنسبة ذلك غلط على أهل السنة ، كما قرر هذا شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وكثير من محققي العلم، والمذهب المنسوب إلى السلف هو ما تقدم تقريره من أن الله لا يعذب إلا بذنب .

*** يؤيده ما يلي :**

١- الأدلة الشرعية التي نصت على عدم يقاع العقاب على من كان معذوراً بجهله ، كما قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)) (الإسراء/١٥) ، وقال تعالى (ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)) (الأنعام/١٣١)

أي: إنما أَعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يعاقب أحد بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أَعذرنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم .^{١٨}

وقال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)) (هود/١١٧) فأخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين .

وَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيحٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمٌّ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُّ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ، وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُّ، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونَنِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ، فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفِتْرَةِ، فَيَقُولُ: رَبِّ،

^{١٦} شرح العقيدة السفارينية (ص/٣٤١)

^{١٧} المصدر السابق (ص/٣٤١)

^{١٨} تفسير القرآن العظيم (٣/٣٤١)

مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَائِبَهُمْ لِيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا كَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا".^{١٩}

فهذه الأدلة الشرعية قد أفادت بما لا يدع مجالاً للشك أن الله -تعالى- لا يعذب من فعل ذنباً -ولو كان شركاً- إذا لم تبلغه الرسالة والحجة ، فكيف يعذب أوليائه الذين عاشوا طائعين عابدين ، لا يعصون الله -تعالى- ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون !!؟

٢- أننا مأمورون شرعاً أن نؤمن بجميع ما صح من أسمائه الله -تعالى- وصفاته ، فكما أننا نؤمن باسم الله الملك ، الذي له الملك المطلق ، فكذلك علينا أن نؤمن باسم الحكيم ، ومعناه أنه سبحانه الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره ، لذا فالقول أن مالك الملك لو عذب أهل طاعته ، وكرم أعدائه لم يكن ظالماً ؛ لأنه لم يتصرف إلا في ملكه فهذا كلام من البطلان البين ؛ فهذه غفلة عظيمة عن الإيمان باسم الله الحكيم ، أَفَنُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ !!!؟

*** إشكال :**

قد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

(لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم).^{٢٠}

الجواب :

أن معنى الحديث أن الله -تعالى- لو وضع عدله على أهل سماواته فحاسبهم بنعمه عليهم وأعمالهم لصاروا مدينين له ، فلو حاسبهم على نعمة واحدة - كنعمة البصر مثلاً- لاستوفت ولرجحت على جميع ثواب أعمالهم وطاعاتهم التي بذلوها ، وحينئذ يكون المرء مديناً لربه -تعالى- بسائر نعمه التي ما أدى حقها ، وحينئذ فلو عذبهم الله لعذبهم وهو غير ظالم لهم ؛ وما ذلك إلا لتقصيرهم في شكر نعمه عليهم .^{٢١}

(٢) قولهم بأن " الظلم الذي نفاه الله - تعالى - عن نفسه ممتنع لذاته " كلام

باطل من وجوه :

^{١٩} أخرجه أحمد(١٦٣٠١) وصححه الألباني في الصحيحة" (١٤٣٤)

^{٢٠} أخرجه أبو داود(٤٦٩٩) ، وانظر صحيح الجامع (٥٢٤٤)

^{٢١} تنبيه :

ما روي من حديث الرجل الذي عبد الله خمسمائة سنة ، وأن الله سيقول : " أدخلوا عبيد الجنة برحمتي " ، فيقول الله : " قايسوا عبيد بنعمتي عليه وبعمله " ، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه ، فيقول أدخلوا عبيد النار فيجر إلى النار فينادي رب برحمتك أدخلني الجنة " فهو حديث ضعيف ، أخرجه الحاكم في المستدرک(٥٤٢٥٠) والعقيلي في " الضعفاء"(١٦٥) ، وفي سننه سليمان بن هرم ، قال الحافظ الذهبي: سليمان غير معتمد. قال العقيلي: " مجهول ، وحديثه غير محفوظ " ، قال الأزدي: لا يصح حديثه. وانظر المغني في الضعفاء (٢٨٤/١) ولسان الميزان (٤/١٨٠) ، وقد وذكر الألباني هذا حديث في ضعيف الترغيب والترهيب(ح/٢٠٩٩).

أ) الأول :

تفسير نفي الظلم عن الله -تعالى- بالامتناع عليه ليس فيه مدح ولا كمال ، وإنما المدح والكمال أن يقال إن الله سبحانه منزّه عنه، لا يفعله لعدله، والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه، لا بترك الممتنع .

ب) الثاني :

قوله تعالى: { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) } (طه/١١٢)

ووجه الدلالة :

أن نفي الظلم لو كان على وجه الامتناع لم يكن ثمة فائدة من نفي الخوف من تحققه ، فالذي يُخاف إنما هو الممكن .

* بيّده :

ما ورد عن أبي ذرّ -رضي الله عنه- أن النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما رَوَى عَنْ اللهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّهُ قَالَ:
"يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّمَّ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا،..."^{٢٢}
ووجه الدلالة :

أن الممتنع لذاته لا يُحتاج إلى تحريم ؛ لأنه ممتنع لذاته ، وبيان ذلك أنه ليس لشخص أن يقول -مثلاً- حرّمت على نفسي أن أطير في الهواء ؛ ولا يقال:
" إن فلاناً الأعمى يغض بصره عن النساء !! " ؛ لأن هذا ممتنع لذاته ، وليس رغبة عنه ، فالذي يحرم لا يتوجه إلا لما كان ممكناً .^{٢٣}
قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

الأمر الذي لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ، وإنما يكون المدح بترك الأفعال إذا كان الممدوح قادراً عليها ، فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله ، والذي حرّمه على نفسه هو أمر مقدور عليه ، لكنه لا يفعله لأنه حرّمه على نفسه ، وهو سبحانه منزّه عن فعله مقدّس عنه .^{٢٤}

* الرد على المعتزلة :

أما قولهم : " أن الله -تعالى- لا يظلم ، وأن عدله يقتضى ألا يكون خالقاً لأفعال العباد ؛ لأنه لو كان خالقاً لها ثم عاقبهم عليها لكان ظالماً لهم !!!

* فالرد من وجوه :

١) الأول :

إنه -تعالى- إنما يعذبهم على ما أحدثوه من ذنوب ، وكان بمشيئتهم وقدرتهم، وكونه

^{٢٢} أخرجه مسلم (٢٥٧٧) وأحمد (٢١٤٥٨)

^{٢٣} شرح السفارينية للشيخ حمد الحمد (ص/٧١)

^{٢٤} مجموع الفتاوى (١٤٤/١٨)

تعالى خالق أفعالهم لا يمنع أن تكون أفعالهم مضافة إليهم على الحقيقة ، فلا تعارض بين الأمرين إلا عند من ضاق أفقه .

(٢) الثاني :

إن ما يبنتلى به العبد من الذنوب ، وإن كانت خلقاً لله تعالى، فهي عقوبة للعبد على ذنوب قبلها ، وبما كسبت أيدي الناس ، فالذنوب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها، فالذنوب والأمراض التي يورث بعضها بعضاً .

يبقى أن يقال:

فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب؟

يقال: هو عقوبة أيضاً على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره على محبته وتألّفه والإنابة إليه، كما قال تعالى: { فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها } [الروم: ٣٠] .
فإن لم يفعل ما خلق له وفطر عليه ، من محبة الله وعبوديته ، والإنابة إليه - عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، فإنه صادف قلباً خالياً قابلاً للخير والشر، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالى: {كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين} [يوسف: ٢٤]..... ، وأما إذا صادفه فارغاً من ذلك، تمكن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص. وهي محض العدل.

***فإن قلت: فذلك العدم من خلقه فيه؟**

قيل: هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه، لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمراً وجودياً حتى يضاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه .^{٢٥}

***ومما قاله المعتزلة :**

الله تعالى - عدل لا يظلم أحداً ، وأفعال العباد فيها ظلم كثير ، فلو كان الله - خالقاً - لأفعال العباد لكان متصفاً بالظلم !!!^{٢٦}

*** والجواب :**

هذا الإلزام غير صحيح؛ لأن كون البارئ تعالى خالقاً لا يوجب أن يتصف بما خلق من ظلم وكذب وطاعة ومعصية؛ لأن هذه الصفات؛ إنما هي لمن قامت به، وليس لمن خلقها .

فالصفات وصف لمن قامت به ، فالظلم مثلاً: صفة للظالم ، ولا يكون صفة لله

^{٢٥} وانظر شرح الطحاوية(ص/٤٤٢) والمعتزلة وأصولهم الخمسة(ص/١٨٣)

^{٢٦} يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي : " وفي أفعال العباد ما هو ظلم وجور ، فلو كان تعالى خالقاً لها لوجب أن يكون ظالماً جائراً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . (شرح الأصول الخمسة(ص/٣٤٥))

تعالى ، فصح أن خلقه تعالى لهذه الصفات لا يلزم وصفه بها .
قال أبو العباس ابن تيمية :

كون الفعل قبيحاً من فاعله لا يقتضي أن يكون قبيحاً من خالقه ؛ لأن الخالق خلقه في غيره لم يقم بذاته ، فالمتصف به من قام به الفعل لا من خلقه في غيره
والله -تعالى- إذا خلق الإنسان هلوياً جزوعاً - كما أخبر تعالى بقوله: { إن الإنسان خلق هلوياً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً } [سورة المعارج: ١٩ - ٢١]- لم يكن هو سبحانه لا هلوياً ولا جزوعاً ولا منوعاً ، كما تزعم القدرية أنه إذا جعل الإنسان ظالماً كاذباً كان هو ظالماً كاذباً ، تعالى عن ذلك .^{٢٧}

تم بحمد الله تعالى

^{٢٧} منهاج السنة (٢/٢٩٤)